بداية النهاية

انهيار الدولة الأموية في المشرق

كانت بلاد فارس مشتعلة بالثورات طوال العهد الأموي، وقد استطاع ولاة بني أمية قمع هذه الثورات والفتن، ولكن قوة الثورة بدأت في التجمع تحت راية العباسيين، وهم أبناء عمومة الأمويين، وانطلقت لتحقيق هدفها وهو القضاء على دولة بني أمية التي سادت مناطق واسعة من العالم ونشرت فيها الإسلام، حتى أصبحت الدولة الأموية رمزًا لقوة العرب المسلمين.

وقد استغرق العباسيون وقتًا طويلاً في الإعداد لهذه الثورة، وبالنسبة للأمويين فلم يكن الأمر مفاجئًا؛ فقد تواترت الأخبار مُنذرة بني أمية بالخطر القادم، ومن ولاة الأمويين «نصر بن سيار» آخر ولاة الأمويين في خراسان، وكان نصر بن سيار عربيًا مسلمًا مؤمنًا، توافرت له كفاءة عظيمة في القيادة والإدارة والحرب.

وظل نصر بن سيار مقيمًا في خراسان وقتًا طويلاً يحاول قدر جهده، ويبذل قدر ما استطاع للسيطرة على هذا الموقف المتأزم، ولكن جهوده كانت تصطدم بمقاومة شديدة من دعاة وزعماء العباسيين، وظهر له في النهاية أن الثورة قد وصلت إلى مرحلتها النهائية، وأسعفه الموت فلم يشهد نهاية الحكم الذي حاول الدفاع عنه.

وقبل موته كتب نصر بن يسار إلى مروان بن محمد يُنذره بخطر أبي مسلم الخراساني، قائد العباسيين في منطقة خراسان وصانع ثورتهم، كتب أبياتًا من الشعر ينذره بالخطر قال فيها:

أرى بين الرماد وميض جمر ... فأحج بأن يكون له ضرام

فـإن النار بالعـودين تزكى وإن الحـرب مـبـدؤها الكلام
نقلت من التعجب ليت شعري أأيقـاظ أُمـيـة أم نيـام

وقد كان هشام بن عبد الملك قد اختار نصر بن سيّار الكتاني وهو من «اليمنية» لولاية خراسان بسبب ما اشتهر به من الفضائل، وكان ذلك في سنة ١٢٠هـ (٧٣٧م).

وقد وُصف نصر بأنه «أجل القوم وأحزمهم وأعلمهم بالسياسة» وقيل عنه أيضًا: «عفيف مجرب عاقل».

ولما قيل لهشام بأنّ عَشيرة نصر بن سيار قليلة في خراسان. أجاب قائلاً: «لا أباً لك، أتريد عشيرة أكثر مني، أنا عشيرته».

وكان اختيار هشام لنصر بن سيار اختياراً موفّقًا، فقد كانت خراسان تضطرم ناراً منذ عهد طويل، فمضى نصر بعزم لا يلين، وإرادة قوية في إدارة الولاية، وفي خلال أربع سنوات من ولايته عُمِّرت خراسان عمارة لم يسبق لها مثيل، ووضع الخراج، وأحسن الولاية والجباية، وذلك ما جاء في قول الشاعر سوار بن الأشعر وهو يمتدح نصر بن سيار:

أضحت خراسان بعد الخوف آمنة من ظلم كل غشوم الحكم جبار
لما أتى يوسفًا أخبار ما لقيت اختار نصراً لها – نصر بن سيار[١]

ومضى نصر بن سيار لإخضاع المناطق المتمردة فيما وراء النهر (نهر جيحون) حيث الأبواب الحديد وسمر قند والشاش وفرغانة والصفر، فأخضع الثورات وقضى على الفتن، وعندما تُوفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ، وولي الوليد بن يزيد الخلافة عمل الوليد على تعيين نصر مرّة أخرى على ولاية خراسان[٢].

---

(١) انظر «تاريخ الطبري» جـ٧ ص١٥٨.

(٢) انظر «الخلافة الأموية» عبد المنعم الهاشمي – دار ابن حزم – بيروت.

وعليه فقد تابع نصر بن سيار جهوده في مواجهة الثورة العباسية، فما أن ظهر خطرها حتى تصدى لها بكل قوة، وجابهها بكل حزم، ورأى نصر أن هذه الحركة تعمل ضد العرب، وتهدف إلى القضاء عليهم؛ ولذلك فقد حاول جمع العرب وحشدهم لقتال أبي مسلم الخراساني، وحاول حثّ العرب على ذلك، وحشد طاقتهم، ونبذ خلافاتهم في مواجهة هؤلاء فقال:

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن ... أن اغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
وما بالكم تنشبون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجر عن رأيكم غيب
وتتركون عدواً قد أحاط بكم ... ممن تاشب لا دين ولا حسب
من كان يسألني عن أهل دينهم ... فإن دينهم أن تهلك العرب

ورغم جهوده هذه، فقد وافته المنية في مرو سنة ١٣١ هـ (٧٤٨م) فمضى إلى ربه راضي النفس، مطمئناً.

بعد ذلك حملت عيون بني أمية وجواسيسهم أخبار العباسيين، فعندما باع عيسى بن معقل العجلي خادمه أبو مسلم الخراساني بمبلغ أربعمائة درهم إلى بكير بن ماهان في سنة ١٢٤ هـ - ٧٤١م، عاد أبو مسلم إلى خراسان لنشر الدعوة العباسية، في ذلك الوقت كانت عيون الأمويين ومخابراتهم تتابع حركة أبي مسلم الخراساني وتصرفاته.

وفي السنة التالية (١٢٥ هـ - ٧٤٢م) توفي هشام بن عبد الملك بن مروان، فانهارت هيبة ومكانة الأمويين، وضعفت قوتهم، وفتر بأسهم عندما تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الذي أحب الملذات والشراب، وأفرط في ذلك كله.

ومما يُروى في تاريخ الطبري عن سلوك الوليد: أنه تمادى في الشراب وطلب

الملذات فأفرط، فقال له هشام: ويحك يا وليد، ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تدع شيئًا من المنكر إلاّ أتيته غير متحاشٍ ولا مستتر، فكتب إليه الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفًا وممزوجة ... بالسخن أحيانًا وبالفاتر

فغضب هشام على ابن مسلمة – وكان يكنى أبا شاكر – وقال له: يعيِّرني بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة! فالزم الأدب واحضر الجماعة. وولاه موسم الحج سنة ١١٩ هـ، فأظهر النسك والوقار واللين، وقسّم بمكة والمدينة أموالاً، فقال مولى لأهل المدينة وهو يعرض ويتهكم بالوليد:

يا أيها السائل عن ديننا ... نحن على دين أبي شاكر

ولكن المؤرخون قالوا عنه:

«لما وُلّي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وأفضت إليه الخلافة، لم يتردد في الذي كان فيه من اللهو واللّذة والركوب للصيد وشرب النبيذ، ومنادمة الفسّاق».

فتركت الأخبار الواردة عنه بذلك كراهية إطالة الكتاب بذكرها.

فثقل ذلك من أمره على رعيته وجنده، فكرهوا أمره، وكان من أعظم ما جنى على نفسه، حتى أورثه ذلك هلاكه وإفساده على نفسه بني عمه هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان. مع إفساده على نفسه اليمانية، وهم أعظم فكان أن قام يزيد بن الوليد – الناقص – بقتل الوليد بن يزيد، ولم تمضِ على إمرته أكثر من خمسة عشر شهرًا»[1].

ولكن الأمر لم يستقم ليزيد بن الوليد، فقد خرج عليه سليمان بن هشام بن

(١) الطبري جـ٧ ص٢٣١.

عبد الملك بعمان ودمشق، وخرج عليه أيضاً مروان بن محمد بن عبد الملك الذي كان عاملاً للوليد على حمص.

وأعلنت الأردن وفلسطين تمردهما، ووجه يزيد قواته لإخضاع حركات التمرد المضادة له.

وكان مروان بن محمد في أرمينية، فما أن بلغه مقتل أخيه حتى قدم إلى الجزيرة الشامية متظاهراً بأنه يطلب دم أخيه يزيد بن الوليد الناقص، ولكن موت يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ - ولم تمضِ على إمارته ستة أشهر - وضع حداً للخلاف.

فقد تولى مروان بن محمد إمرة المؤمنين، وكان عليه قبل كل شيء القضاء على «إبراهيم بن الوليد - أبي إسحق» فتم له ذلك بعد سبعين يوماً من وفاة يزيد، ولكن الثورة لم تهدأ، بل اندلعت نيرانها في الكوفة بقيادة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب، وأمكن القضاء على هذه الثورة بعد جهد، ثم إن حمص والشام أعلنتا تمردهما ضد مروان ثم أعلن سليمان بن هشام الثورة ضد مروان بن محمد وأيده أهل الرصافة.

واحتاجت هذه الثورات إلى جهود ضخمة لإخمادها، فمثلاً لكي يتم إخضاع ثورة حمص تم حصارها عشرة أشهر كاملة، ونصب ما يزيد على ثمانين منجنيقاً عليها لضربها، وفي العراق وخراسان كانت الثورة كلما تخمد تتأجج نارها من جديد، وتنتقل من بلد إلى بلد.

وأدت هذه الثورات إلى تفاقم الخلاف بين القيسية واليمنية، وفي الوقت نفسه ازدادت قوة الخوارج والحرورية، وأصبح الجو أكثر تهيئة للعباسيين ليقيموا دولتهم، فقد أصبحت البلاد مضطربة، وفي ظل هذا الاضطراب نهضوا لتنظيم دعوتهم، وحشد قواتهم، وفي خلال سنوات قليلة أصبح العباسيون قوة لها شأن، ويُحسب لها ألف حساب، بل من الصعوبة مواجهة هذه القوة.

ومع دخول سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٦م انطلق أبو مسلم الخراساني رجل العباسيين الأول إلى «مرو» فدخلها بقواته، وتوالت الأحداث سريعًا، فلم يمضِ عام على ذلك حتى اجتاحت قوات الثورة العباسية خراسان وسيطرت على العراق [١].

ولم تفلح جهود مروان بن محمد (آخر الخلفاء الأمويين) في إيقاف حشود العباسيين التي تقدمت حتى وصلت الزاب، ودارت معركة أظهرت فيها قوات بقيادة عبد الله بن علي قدرًا كبيرًا من الصرامة والحزم مما أدى إلى انتصار العباسيين، وهروب مروان ومعه بعض أهله، وغنم العباسيون كل ما كان في معسكر مروان من سلاح وفير وأموال كثيرة، وكانت هذه المعركة تُسمى بمعركة «الزاب»، وكان جيش مروان فيها قرابة ١٢٠ ألف مقاتل، وعلى الرغم من ذلك فلم يتمكن هذا الجيش من خوض المعركة بسبب انهياره المعنوي.

وعندما هرب مروان، عيّره من ولد سعيد بن العاص بقوله:

لجج الفرار بمروان فقلت له ... عاد الظلوم ظليمًا همه الهرب
أين الفرار وترك الملك إذ ذهب ... عنك الهوينا فلا دين ولا حسب
فراشة الحلم فرعون العقاب وإن ... تطلب نداه فكلب دونه كلب

انسحب مروان إلى حران وبها ابن أخيه إبان بن يزيد بن محمد بن مروان، عاملاً عليها، فأقام بها نيفًا وعشرين يومًا، ولكن عبد الله بن عليّ قاد قوات العباسيين ومضى لمطاردة مروان، فلما اقترب من حران، غادرها مروان ومعه أهله وولده وعياله، ومضى منهزمًا، وخلّف بمدينة حران أبان بن يزيد زوج ابنته والتي كان يُقال لها أم عثمان، وقدم عبد الله بن علي فتلقاه أبان وأعلن تأييده للعباسيين وبايعه ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

ومضى مروان حتّى مرّ بقنسرين وعبد الله بن علي متبع له، ثم مضى من

(١) انظر «الخلافة العباسية» عبد المنعم الهاشمي - دار ابن حزم - بيروت.

قنسرين إلى حمص فتلقاه أهلها بالسمع والطاعة، فأقام بها يومين أو ثلاثة، ثم غادرها، فلما رأى أهل حمص قلة من معه طمعوا فيه، وقالوا: مرعوب مهزوم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم، فلحقوه على أميال، فلما رأى غبرة خيلهم، أكمن لهم في واديين قائدين من مواليه، يُقال لأحدهم: يزيد، والآخر: مخلد، فلما دنوا منه وجاوزوا الكمينين ومضى الذراري صافهم فيمن معه وناشدهم، فأبوا إلاّ مكاثرته وقتاله، فنشب القتال بينهم وثار الكمينان من خلفهم، فهزمهم وقتلهم حيلة، حتى انتهوا إلى قريب من المدينة.

ومضى مروان حتى مرَّ بدمشق، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان وهو أيضًا ختن (صهر) لمروان، متزوج بابنة له يقال لها أم وليد، فمضى وخلّفه بها حتى قدم عليه عبد الله بن عليّ، فحاصره أيامًا، ثم فتحت المدينة، ودخلها عنوة معترضًا أهلها، وقتل الوليد بن معاوية فيمن قُتل، وهدم عبد الله بن عليّ حائط مدينتها، ومرمروان بالأردن فانضم إليه واليها بمن معه، وسار إلى فلسطين، ثم إلى مصر، وعبد الله بن علي يطارده، إلى أن دارت المعركة الحاسمة في «بوصير» وقُتل مروان بن محمد ومن كان معه، وطويت صفحة العصر الأموي في بلاد الشام، وأُرسل رأس مروان إلى السفاح بالكوفة[1].

وقد تمثل أبو العباس السفاح بالبيت التالي:

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ... ولا دماؤهم للغيظ ترويني

ومضى السفاح وأعوانه من الفرس يُتابعون أعمال الإبادة، وكان السفاح قد اتخذ من فارس رجلاً اسمه «سديف» مستشارًا له ومعينًا، ودخل سديف على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد أكرمه السفاح، فقال سديف محرضًا:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويًا

فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويًا

(١) انظر «الكامل في التاريخ» ج٤ من ص٣٢٨ إلى ص ٣٣٢.

فقال سليمان: قتلتني يا شيخ، ودخل السفاح وأخذ سليمان فقُتل، وكذلك دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده من بني أُمية نحو تسعين رجلاً على الطعام، فأقبل شبل واستثاره بابيات من الشعر قال فيها:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وترها ثم خشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقبلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقبة وغراس
ذلها أظهر التودد منها ... ووبها منكم كحر المراس
ولقد غاظني وغاظ سوائي ... قربهم من نمارق وكراس

فما كان من السفاح إلاّ أن أمر بهم عبد الله، فضربوا بالعمد حتى قُتلوا، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليهم، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعًا.

وكان فيمن قُتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك، واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك، فلما فرغ عبد الله بن علي من مصرعهم أنشد شعرًا عبّر فيه عن شماتته.

وقيل إن سديفًا هو الذي أنشد هذا الشعر للسفاح، ومعه كانت الحادثة وهو الذي قتلهم. وقيل: إنه قال شعرًا عبّر عن شماتته جاء فيه:

بني أمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لي منكم بالأول الماضي

وقتل سليمانُ بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة أيضًا جماعةً من بني أمية عليهم الثياب الموشاة المرتفعة، فلما رأى ذلك بنو أمية اشتدّ خوفهم وتشتت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء.

وقد وجه العباس قوة لقتال الأمويين، فانطلق قائد القوة يُنشد شعراً يُصور حال الأمويين جاء فيه:

يا آل مروان إن الله مهلككم ومبدل بكم خوفًا وتشريداً
لا عمر الله من إنشادكم أحداً وبثكم في بلاد الخوف تطريداً

وانهارت الدولة الأموية في جو من المأساة الرهيبة، قد يصعب على المؤرخ وصفها وتصويرها؛ لما فيها من أعمال انتقامية تدل على الحقد الذي تجرد مرة واحدة، فلم تعد للحياة الإنسانية قيمة تذكر؛ ولذلك فقد كان كل من يحمل اسم «أمية» مهدد بالفناء والعدم، وكان لزامًا عليه أن يدفع ثمن هذا الانتساب، حتى وإن كان مظلومًا؛ ولذلك فقد كان محظوظًا من استطاع الهرب أو التواري من أمام هذه الجحافل المنتقمة الحاقدة.